

الفصل الثالث

جوانب حسن العطار

١ - حسن العطار الشاعر

أجمع الذين ترجموا للعطار أو تناولوه بشيء من الدراسة والتعريف على أنه كان شاعراً . ولا بد أن نضع الرجل في مكانه الصحيح من شعر ذلك العصر الذى عاش فيه . فلو أننا قسناه بمعايير زماننا وما طرأ عليها من تجديد في النظر إلى الشعر لظلمنا الرجل ظلماً بيناً . والحق أن العطار كان - كما لاحظ تلميذه الأديب الشيخ مصطفى بكري الساعاتى - ينحو في الشعر منحى أهل الأندلس في قصائدهم ، ولم يحد عن طريقتهم التى بها تفوقوا وانفردوا عن سواهم (١) . ولم يكن العطار في جريه على طريقة الأندلسيين مخالفاً لأهل عصره والعصر الذى سبقه . فإننا نلاحظ أن شعراء القرن الحادى عشر الهجرى والثانى عشر الهجرى كانوا يعارضون شعراء الأندلس في نظم الموشحات ، فالشاعر إسماعيل الطهورى المصرى الموسيقى الملحن والمتوفى سنة ١٢١٢ هـ عارض موشحة لسان الدين بن الخطيب (٢) . وقد سبقت الإشارة إلى موشحة العطار التى عارضها رفيقه الشاعر إسماعيل الخشاب بموشحة في ديوانه . كما أن له بعض موشحات روى طرفاً منها في كتابه حاشية العطار على الخبيصى ، صفحة ٢٥٧ :

ولم يكن العطار راضياً عن المستوى الذى هبط إليه الشعر العربى في عصره ، فقد عاب عليه هبوطه إلى المدح الكاذب ، حتى ترفع الشعراء الحقيقيون عن نظم المدايح وتجاوزوا بأنفسهم عنها ، لما فى ذلك من انحطاط القدر . ولقد صور لنا هو بقلمه هذه الظاهرة بقوله من رسالته الجلية إلى تلميذه الشيخ مصطفى

(١) مجلة روضة المدارس - عدد ١٨ ص ٣٦٩ .

(٢) تاريخ الجبرى - طبعة لجنة البيان العربى ج ٤ ص ٢٧٥ .

بكرى : (. . . ولما تعاطى الشعر بعض الخاملين . ليتوصل به إلى امتداح ما ليس حقيقاً بالمدح ، واستمناح ما استرشاح الماء من الصلد أهون ما يطلبه منه من المنح ، تسفل قدره ، وانحط أمره ، وتجافى بنفسه عن نظم المديح ، كل ذى لب رجيح ، وطبع صحيح : لما رأى فى ذلك من الإزراء وانحطاط القدر ، وتحمل إثم الكذب ، والوقوف مواقف الذل ، وترقب بارق خلب المواعيد ، والطمع فى استرشاح الصم الجلاميد .) (١) .

ولقد كان فى حسن العطار رقة طبع ، وسلامة ذوق ، ورهافة حس ، فأثر شعر الغزل والنسيب والتشبيب . وعبر عن ذلك بقوله فى رسالته : (وأنا أرجو أن لا يكتب إلا ما لطف من النسيب ، وعذب من التشبيب) . وكان يضطر بعض الحين - بحكم الملابسات والظروف - إلى أن ينظم فى غير الغزل ، وخاصة فى المدح - كمدحه لمحمد على - ولكنه يعترف لنا فى رسالته ، بل يقسم بالله بأن غير النسيب فى شعره لم يكن يخطر إلا قسراً ! (وإن أتيت بشيء منه فإنى معترف بأنى جئت شيئاً إمرأ !) (٢) فكأنه كان مكرهاً على أن يركب من مراكب الشعر الصادق ما ليس من طبعه ، ويقول فى هذا : (مكره أخاك لا بطل) .

وإقلال العطار من شعر المديح إلا للضرورة قصوى - كالضرورة التى ألبأته إلى مدح محمد على - يدل على أصالة طبع هذا الرجل ، وصدق نفسه ، وترفعه عن طلب ما فى أيدي الناس ، وقد عبر لنا عن إعجابه بأبيات عمران ابن حطان التى قالها مخاطباً الفرزدق حين سمعه ينشد شعره فى المديح :

أيها المادح العباد	ليعطى	إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم	وارج فضل المقسم العواد	
لا تقبل للجواد ما ليس فيه	وتسمى البخيل باسم الجواد	

أما شعر الرثاء فما ركبه العطار إلا مجبراً بعد إلحاح من طالب لا يستطيع

(٣) مجلة روضة المدارس - عدد ١٩ - ص ٣٩٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٨ .

دفعه إلا بإجابته إليه ، كما قال في رسالته لتلميذ مصطفى بكري . على أنه في بعض مراثيه المأثورة كان فيه براعة الالتفات إلى صفات المرثى ، حتى ولو كانت موضع نقد من الناس . فقد كان السيد أبو الأنوار السادات معروفاً بالتعظيم والتفاخر في زمنه ، فلما مات نظم العطار في رثائه قصيدة استهلها بالإشارة إلى ما كان عليه من التعظيم والتفاخر ، فقال في الشطر الأول من مطلعها : سلام على الدنيا فقد ذهب الفخر ^(١) ! ومن مراثيه الصادقة قصيدته في رثاء شيخه محمد عرفة الدسوقي التي يقول فيها :

أحاديث دهر قد ألمَّ فأوجعا وحل بناذى جمعنا فتصدعا
لقد صال فينا البين أعظم صولة فلم يخل من وقع المصيبة موضعاً
ولم يهجم العطار إلا مضطراً في حالات نادرة ، ويصرح لنا هو بقوله :
(وأما الهجاء فلم ينفق لى سوى أبيات وقعت عن سهو ، وقد لعبت بها - والله
الحمد - أيدي الإزالة والحو) ^(٢) . وتراه هنا كالمعتذر عن هذا الهجاء ، ويحمد
الله أن يد الإزالة قد محتته . على أن الزمان الذي لا يضيع عنده شيء قد حفظ لنا
بعض هجائه ، فهو يهجو شخصاً بقوله :

أنى لأكره في الزمان ثلاثة ما إن لها في عدها من زائد
قرب البخيل ، وجاهلاً متفاضلاً لا يستحى ، وتودداً من حاسد
ومن البلية والرزية أن ترى هذى الثلاثة جمعت في واحد ^(٣) ...
على أن موقف الفرنسيين من مصر والمصريين في أثناء حملتهم الغادرة قد
حمل العطار على هجائهم بقوله :

إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم في مصرنا بين حمار ، وخمار !

(١) تاريخ الجبرق - طبعة بولاق - ج ٤ ص ١٩٥ .

(٢) روضة المدارس ص ٢٨ .

(٣) الخطط ج ٤ ص ٣٩ ، وكتاب الأزهر بين الماضي والحاضر ص ٦٧ .

وعن قريب لهم في الشام مهلكة يضع فيها لهم آجال أعمار! (١)
 وطبيعة الشاعر الرقيق الأصيل عند العطار قد حملته على أن يتأثر بالطبيعة
 فيصفها ، وهو وصف فيه من الصدق والتأثر ودقة الملاحظ ما يدل على صفاء
 نفسه . ولا تزال تردد في سمع الزمان أبياته التي قالها في وصف بركة الأزبكية
 ومنها قوله :

بالأزبكية طابت لي مسرات ولدلى من بديع العيش أوقات
 حيث المياه بها والفلك سابحة كأنها الزهر تحويها السموات (٢)
 على أنه حين فر إلى أسيوط خوفاً من الفرنسيين لم يفتنه أن يصور هذه
 العاصمة الجميلة بقوله :

سقياً لأسيوط ذات الظل والشجر ومربع اللهو واللذات والزهر
 منازل بصنوف العيش عامرة يلهو النديم بها في مشتى الوطر (٣)
 وحين أقام العطار بدمشق أخذت بقلبه غوطتها ومحاسنها ومنتزهاتها ، فقال
 يصفها من قصيدة طائية :

بوادي دمشق الشام جزبي أخوا البسط . وعرج على باب السلام ولا تخطى
 عرائس أشجار إذا الريح هزها تميل سكارى وهي تخطر في مرط (٤)
 كساها الحيا أثواب خطر فدفثرت بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط
 وقد نظم حسن العطار في أغراض آخر ، فهو يهني في بعض المناسبات ،

(١) الجبتي - طبع لجنة البيان ج ٥ ص ١٨ .

(٢) روضة المدارس عدد ١٩ ص ٦ وإنشاء عطار ص ٦١ ، ومصر في القرن الثامن عشر

ص ٥١ ج ١ .

(٣) إنشاء العطار - ص ٥٨ .

(٤) الآداب العربية لشيخوخ ج ١ ص ٥١ ، وألحظ التوفيقية ج ٤ ، وبجدة المجلة عدد رقم ٩٩ .

كتهنته لنقيب أشراف القدس بعودته إلى النقابة بعد أن أبعد عنها ، فيقول :
 الحمد لله على فضله قد رجع الحق إلى أهله
 وآض روض الفضل ذابهبجة من بعد ما أشفق من محله
 قد يتساوى اثنان في منصب وإنما التفريق في سبيله
 ومفخر المرء بأفعاله لا بالذى قد مات من أهله (١)

وهو ينظم شعراً تاريخياً ينقش على قاعة الجلوس في بيت الأمير المملوك
 محمد بك الألفي يقول فيه :

شموس التهاني قد أضاءت بقاعة محاسنها للعين تزداد بالألف
 على بابها قال السرور مؤرخاً سماء سعاداتي تجدد بالألفي (٢)

على أن أرق ما في شعر حسن العطار هو غزله الذي يقول في بعضه :

أعن المحب ثناك عنه وجيبه أم قد دعاك إلى البعاد رقيبته ؟
 هجر الكرى لما هجرت ، وواصلت ه شجونته وازداد فيك نحيبه
 لم يجن ذنباً في هواك ، وإنما قد كان بالهجران منك نصيبه (٣) ...

ويقول في بعضه الآخر :

إلى متى أشكو ولم ترث لي ؟ أما كفي أن رق لي على ؟ !
 يا باخلا بالوصل عن عاشق بعسجد الأجنان لم يبخل
 أنفق في حر الهوى عمره وعن أمانيه فلا تسأل !

على أنه في بعض مدائحه الشعرية القليلة كان يفتح بالغزل تخلصاً إلى

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ .

(٢) تاريخ الجبرق - طبعة بولاق - ج ٤ ص ٢٨ ، وطبعة لجنة البيان ج ٦ ص ٣٢١ .

(٣) إنشاء العطار ص ٥٤ .

المدح كما فعل في مدحته لإبراهيم « باشا » .

وقد يبدو الغزل غربياً من عالم فقيه أصولي محقق كان شيخاً للأزهر ! ولكن ليس في هذا غرابة من واقع الأحداث والتاريخ . فالشيخ عبد الله الشبراوي كان شيخاً للأزهر في القرن الثاني عشر ، بل كان سادس شيوخه على ترتيبهم في تولي المشيخة ، ومع هذا له القصيدة الغزلية الرقيقة التي يتغنى بها في عصرنا هذا من أرق الحناجر الملائكية ، ومطلعها :

بحقك أنت المني والطلب وأنت المراد وأنت الأرب !
ولي فيك يا ها جرى صبوة تحير في وصفها كل صب (١)
وكان بعض شيوخ الأزهر المتزمتمين يتغزل في شعره ، كالعلامة الشيخ محمد الأمير - أستاذ العطار - الذي يقول

أيها السيد المدلل ضاعت في الهوى ضيعتي ، وأنسيت نسكي
ياللك الله ! لا تمل لسوائى وتحكم ولو بما فيه فتكى !
وانظر الحق في علو غناه كل شىء يحويه غير الشرك (٢) !

وكالعلامة النحوى الشهير الشيخ محمد الصبان الذى يقول :

وحق صبح المحيا مع دجى الشعر وجنة الخلد مع راح اللمى العطر
ومقلة بفنون السحر قد كحلت وقامة رشحتها خمرة الخفر
ما غير البعد عهدى في الغرام ولا نسيت وداً مضى في سالف العصر (٣)

كما كان يتغزل بعض الشيوخ المتطرفين ، كالشاعر محمد شهاب الدين تلميذ صاحبنا العطار ، الذى شحن ديوانه بهذا الفن من الشعر ! فالعطار!

(١) ديوان الشبراوي ص ٨ ، ٩ . وكتاب الأزهر بين الماضى والحاضر - ص ٦٥ .

(٢) تاريخ الجبرق - طبع بولاق ج ٤ ص ٢٨٥ .

(٣) تاريخ الجبرق - طبع لجنة البيان - ج ٤ ص ٢٠٧ .

لم يخرج عن نهج شيوخه الكبار في الغزل والنسيب ، كما لم يخرج تلاميذه المشايخ عن نهجه في الغزل ، وعلى رأسهم الشاعر شهاب الدين !

بقي أن نقول كلمة عن ديوان حسن العطار . ففي ديوان الخشاب إشارة إلى أن بقية موشحة العطار موجودة في ديوانه^(١) . والجبرتي يقول في خلال ترجمته للشيخ شامل الطرابلسي إن قصيدة العطار في مدحه التي مطلعها :

انهض فقد ولت جيوش الظلام وأقبل الصبح سفير اللثام

مسطرة بديوانه^(٢) . ويقول العطار عن نفسه : (ضاع مني بدمشق كراس من ديوان الشعر)^(٣) . ويقول الأب لويس شيخو : (وله شعر رائق جمع في ديوانه) . وينقل عنه فيليب طرازي هذه العبارة بنصها^(٤) . وينقل هذا الكلام الأساتذة الزركلي ، وعمر رضا كحالة ، وعمر الدسوقي . ولكن الأستاذ المحقق أحمد الإسكندري يقول في المفصل : (ولم يجمع شعره في ديوان خاص ..)^(٥) . ونخلص نحن من هذه الأقوال التي تكاد تتعارض ، بأن ديوان العطار كان مجموعاً ، ولكنه ضاع بعضه في حياته - كما يقول هو - وضاعت بقيته بعد وفاته .

على أن حديثنا عن العطار الشاعر لا ينسبنا كلامه الدقيق الرقيق في الشعر والوزن . فقد جرى على رأى القائلين بعدم اشتراط الوزن في الشعر^(٦) . كما أن كلامه في التأثير بالشعر وتأثيره بحمارة طبع الذى لا يتأثر يدلنا على مبلغ إحساس هذا الشاعر وشاعريته . وحسبنا أن نحيل القارئ على كلامه في هذا

(١) ديوان الخشاب ص ٣٤٥ .

(٢) الجبرتي - طبع اللجنة - ج ٥ ص ١٤٦ .

(٣) مجلة روضة المدارس ص ٢٨ عدد ١٨ .

(٤) تاريخ الصحافة العربية ج ١ ص ١٢٩ .

(٥) المفصل ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٦) العطار على الخبيصي ص ٢٤٧ .

الموضوع في كتابه أو حاشيته على كتاب المنطق (١) .
ولن نغسّر سماء شاعرية العطار بمنظوماته في العلوم ! وخاصة في النحو :
فيكفي أن يرجع القارئ إليها في حاشيته على شرح الشيخ خالد في النحو ، وذلك
ضروري لمن يريد أن يتوسع في جوانب النظم عند هذا الشاعر الرقيق (٢) . . .

٢ - حسن العطار النائر

بلغت حسن العطار نظرنا في تطور أساليب التعبير بهذا الكتاب الذي ألفه
وأسماه كتاب « الإنشاء » وجعل همه فيه أن يضع نماذج - من قلمه - من
المخاطبات والرسائل الإخوانية ، والخطب ، والإجازات العلمية ، والكتابة
الديوانية ، وشروط كتابة الوثائق والصكوك . ففهر يضع دستوراً للكتابة في عصره
ويعززه بالنماذج الكثيرة التي وضعها بقلمه هو . وهي محاولة تدلنا على مبلغ اهتمام
الرجل بتطوير وسائل التعبير وأساليب الكتابة في عصره . كما تدلنا على أن الرجل
أحس بأنه صاحب رسالة في هذا السبيل . ولا شك أن انحدار الأساليب ،
وانحطاط الكتابة في أواخر القرن الثامن عشر حتى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر
سنة ١٧٩٨م كان باعثاً للشيخ العطار على أن يجد لها من الرسوم ، ويجدد لها
من المعالم ما تغدو به متطورة مع العصر . ولا نزع أن العطار كان مجدداً بالمعنى
المعروف في التجديد ، ولكنه كان شيخاً متنوراً أحس أن في طريقة الكتابة في
زمانه ما يحتاج إلى تخطيط وترشيد . فوضع للمتأدبين وشدة الأدب نماذج في
الإنشاء ، على أن لا يقلدوها ويردوها ، كما كان يقلد ويردد خطباء المساجد
تلك الخطب المنبرية التي كانت مجموعة في مصنفات ، كخطب ابن نباتة مثلاً !
لا ! لم يرد العطار محاكاة عمياء ، ولكنه وضع بين يدي الطالب ما يعينه على

(١) المصدر السابق ص ٢٥٨ .

(٢) تجد نماذج لهذا الشعر التعليمي في صفحات ٦ - ٣٤ - ٥٨ - ٨٥ - ٦٣ - ٧٠ -

٧٥ - ٨٧ من حاشية العطار على الأثرية .

تقويم عبارته ، وتحسين كتابته ، وإثرائها بالمثل الشرود ، والشعر المستشهد به ،
والسجعة اللطيفة ، والفقر الظريفة ، حتى تكون ذخيرة للمتأدب يأخذ منها
ما يريد حيث يريد .

وبالطبع لم يستطع العطار أن يخرج على رسوم عصره في الكتابة والنثر ،
من حيث استعمال السجع ، ومحسنات البديع ، والحلى اللفظية . فهو في هذا
نموذج لرجال العصر كله . إلا أنه تخفف كثيراً من هذه المحسنات والزخارف
والأسجاع التي لم يكتب للنثر العربي الحديث التخلص منها إلا بعد أكثر من
قرن كامل ، حيث ثار الشيخ محمد عبده ثورته المباركة عليها ، وتابعه الكتاب
والمفكرون من بعده .

والحق أن العطار بحكم تنوره ، وصفاء ذهنيته ، وكثرة رحلاته وجولاته ، واتصاله
بالفرنسيين ، واطلاعه على كتب الغربيين المترجمة ، استطاع أن يتحرر من
كثير من الأصفاد التي كانت تكبل الأقلام في ذلك الزمان . واستطاع أن يوازن
باعتماداً بين طرائق التعبير التي كانت سائدة في ذلك الزمان ، واستطاع أن يُنزل
الكلام منازلها رعاية لمقتضيات الأحوال . فقرأه يسجع حين يكون السجع حلية
في الكلام ومزية لا يستغنى عنها ، ولا يخلو إلا بها . . . وتراه يرسل ترسلًا
واضحًا شائعًا حين لا يكون هناك معدى عن إرسال الكلام . . . ويبدو ذلك
جليًا في استطراداته اللامعة الذكية التي كان يرسلها في حواشيه وكتبه من حين
إلى حين . فحين لاحظ على شيوخ الأزهر لإعراضهم عن كتب المتقدمين ،
أخذ يلومهم في موطن من حاشيته المشهورة على «شرح جمع الجوامع» في أصول
الفقه قائلاً في أسلوب مرسل دقيق : (إن من تأمل في علمائنا السابقين يجد
أنهم كانوا - مع رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية - لهم اطلاع عظيم على غيرها
من العلوم والكتب التي ألفت فيها . حتى كتب المخالفين في العقائد والفروع .
وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر في كتب غير أهل الإسلام من التوراة
وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية . ثم هم - مع ذلك - ما أخلوا في
تثقيف ألسنتهم برفائق الأشعار ، ولطائف المحاضرات . ومن نظر في ذلك ،

وفما انتهى إليه الحال في زمان وقعنا فيه ، علم أنا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم . فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئاً من عندنا . وقد اقتصرنا على النظر في كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم ، نكرها طول العمر ، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر في غيرها ، حتى كأن العلم فيها !... (١) .

ومن استطرادات العطار المرسلة في غير سجع ولا تكلف قوله في الحريق الذي حدث بالقلعة سنة ١٨٢٣ : (. . . والحريق الذي بالقلعة وبها أمكنة فيها بارود ، فهدم البارود معظمها ، وأهلك خلقاً كثيراً وحيوانات وأمتعة . وارتجت منه مصر مرتين ، مرة بعد المغرب ، والثانية في أول الساعة الخامسة ، بل تحدث الناس بوصول هذه الرجة إلى القرى البعيدة . وعجز الناس عن إطفاء الثيران تلك الليلة . ثم في اليوم الثاني تكاثرت الدولة والناس وأخذوا في إطفائها ، وقد استمرت ليلتين ويومين ، ولولا لطف الله وعنايته ورحمته بالأمة المحمدية هلكت مصر برمتها وأهلها ، بل وتعدى ذلك إلى كثير من القرى ، كما أخبر بذلك أهل الخبرة) (٢) .

ورسالة العطار التي وصف بها الطاعون في الصعيد وبعث بها إلى الجبتي المؤرخ هي نموذج آخر لهذا النثر المرسل الذي كان يرسله الرجل بلا تكلف ولا قيود (٣) . والواقع أن الرجل كان يتحرر من السجع والمحسنات والزخرف في رسائله الخاصة أو استطراداته في كتبه . أما الرسائل التي وضعها في كتابه (الإنشاء) على أنها نموذج للنثر ، فقد تعمد فيها السجع والحلية ، كما ذهب في بعضها أحياناً مذهب التكلف . وتمثل رسالته التي جعلها (لكاتب بليغ) لونهاً من صنعته البيانية في أدب الرسائل . فقد جعلها نموذجاً لما يكتب إلى كاتب بليغ ، كما جعل نماذج لما يكتب ويرسل إلى رجال القضاء وشيوخ الطرق ، والأمرأة والقواد ، والولاء . ونسوق هنا بعض رسالته إلى « كاتب بليغ » ومنها نستخرج

(١) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع - ج ٢ - ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) حاشية العطار على شرح الحبيصي - ص ١٣٨ .

(٣) انظر هذه الرسالة قبل هذا في الفصل الذي عنوانه : وصاف الأوبئة .

قواعد طريقته في الكتابة الإنشائية : (سلام عاطر الأردن ، تحمله الصبا سارية على الرندي^(١) والبان ، إلى مقام حضرة المخلص الوداد ، الذي هو عندي بمنزلة العين والفؤاد ، صاحب الأخلاق الحميدة ، حلية الزمان الذي حلّ بها معصمه وجيده ، الذي موصول إحسانه بكل فضل عائد ، كنز المعارف عقد درر البوائد ، الذي إذا أجرى أقلامه في ميدان الطروس . أودع فيها من لآلئ البيان ما يفعل بالنفوس ، فعل حميا الكؤوس ، من معان حيرت المعاني ، وفعلت بالألباب ما لا تفعله المثالث والمثاني . . .) . ولا نجد أصدق حكماً على أسلوب العطار مما قاله الأديب سامي بدرأوى : (ويغلب على أسلوب العطار البساطة والسهولة والحرص على الفكرة ونقلها إلى القارئ : فالأسلوب عنده مجرد وسيلة للتعبير وليس غاية في ذاته . ومع ذلك فهناك في بعض كتابات الرجل السجع والمحسنات البديعية عموماً . ومن غريب الأمر أن ذلك يكثر حيث يقصد الرجل إلى الإنشاء الأدبي ، أو الكلام في فلسفة الأدب ، ويقل في مؤلفاته العلمية حيث يسهل أسلوبه . ويسلس حتى ليوشك أن يكون معاصراً^(٢) .

وهذه النتيجة التي انتهى إليها هذا الأديب الذي اهتم بالعطار هي أقصى ما يمكن أن نصل إليه من نتائج صحيحة حول نثر العطار .

ولا يقال إن العطار كان ذا شخصية مزدوجة في كتاباته ، فالرجل بسيط سهل في تعبيره ، وهو مترسل قريب الأداء ، ولكنه جعل كتابه في (الإنشاء) نموذجاً لعشاق الأسجاع والمحسنات ، حتى يكونوا من تعبيراتهم على أسلوب سواء .

٣ - الفلكيات وعالم الفلك

لقد جمع حسن العطار إلى شهرته في العلوم الشرعية والشعر والكتابة شهرة في الاشتغال بالعلوم الفلكية . ولم يكن مجرد مطلع عليها ، بل كان متمكناً

(١) الرند نبت طيب الرائحة ، والبان شجر معتدل القوام .

(٢) مجلة المجلة عدد ٩٩ .

منها ، متعمقاً فيها ، مشتغلاً بآلاتها ، عاملاً فيها . ويذكر لنا أحد مترجميه (أنه كان عالماً بالفلكيات ، له في ذلك رسالة في كيفية العمل بالأسطرلاب ، والربعين المقنطر والحبيب والبساط : وكان يحسن عمل المزاويل الليلية والنهارية)^(١) . ولم يكن الاشتغال بالفلك وعمل المزاويل غريباً على مشايخ ذلك العصر . فالجبرتي المؤرخ يذكر لنا كيف كان والده الشيخ حسن الجبرتي متمكناً من علوم الفلك ، وكيف قصده الولى العثمانى أحمد « باشا » كور بعد ما سمع عن علمه ليطالع عليه كتب الفلك والحساب ، وليشتغل عنده برسم المزاويل والمنحرفات حتى أتقنها^(٢) . كما يذكر لنا مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي في وفيات سنة ١٢٠٣ هـ وفاة العالم الماهر الشيخ مصطفى الخياط الذى برع في التقويم وحل الأزياج وتحويل السنين ومظنات الكسوف والخسوف ، واستخراج أوقاتها وساعاتها ودقائقها ، مع الضبط والتحرير وصحة الحدس ، وعدم الخطأ (وكان يستخرج في كل عام دستور السنة من مقومات السيارة ، ومواقع التواريخ ، وتواقيع القبط والمواسم والأهامة ، ويعرب السنة الشمسية لنفع العامة ، وينقل منها نسخاً كثيرة يتناولها الخاص العام ، يعملون منها الأهامة وأوائل الشهور العربية والقبطية والرومية والعبرانية والتواقيع والمواسم وتحاويل البروج وغير ذلك)^(٣) . وكان العلماء في ذلك العصر لا يكتفون بمطالعة مصنفات الفلك ، بل يذهبون خطوة أبعد في التطبيق العملى . فقد كان للشيخ أبى عبد الله التاودى عالم المغرب ولدان أحضرهما معه إلى مصر ، ثم تركهما فترة من الزمن في رعاية الشيخ حسن الجبرتي والد مؤرخنا ، وكانا رقيقين لعبد الرحمن المؤرخ ، ومعهم الشيخ أحمد السوسى ، وسالم القيروانى ، ويحدثنا المؤرخ عن ذكرياته معهم قائلاً : (فكنا نطالع معهما سوياً ، ونسهر غالب الليل ، نراعى المطالع والمغارب ، ومهرات الكواكب بالسطح حذاء خيط المسطرة ، ونراجع الشيخ - يريد والده

(١) تاريخ الصحافة العربية - لفيليب طراوى - ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) الجبرتي - طبع اللجنة ج ٢ ص ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ١١٥ .

الجبرتي الكبير - فيما يشكل علينا فهمه ، وهو معنا في ناحية أخرى . . . (١) .
 وقد أتبح للشيخ حسن العطار أن يطلع على آلات الفلك والرصد عند
 الفرنسيين ، كما اطلع عليها صديقه وصفيه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي . وإذا
 كان الجبرتي قد وصف لنا - بعد معاينة وخبرة - الآلات الفلكية عند الفرنسيين ،
 المتقنة الصنع ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب ، العالية الثمن ،
 المصنوعة من الصفر الموهو ، والنظارات للنظر في الكواكب وأرصاها ، ومعرفة
 مقاديرها وأجرامها ، وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها (٢) - فإن حسن العطار
 أيضاً يذكر لنا في مقامة له أنه اطلع عند الفرنسيين على كتب كثيرة في العلوم
 الرياضية والأدبية ، كما اطلع على آلات فلكية وهندسية (٣) .

وإذا كان عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشتغل بالفلك قد حزن وأسف أشد
 الأسف عندما ثار العامة بمصر على الفرنسيين وخاصة على الميسو (كفريلى)
 الذى كان يسكن فى بيت مصطفى كاشف طرا ، فنهبوا الدار ، وقتلوا بعض من
 بها من الفرنسيين ، وكان مما نهب وحطم كثير من آلات الصناعة ، والنظارات
 الغربية ، والآلات الفلكية والهندسية مما هو معدوم النظير ، وكل آلة من هذه
 الآلات لا يعرف قيمتها إلا من يعرف صنعها ومنفعتها - إذا كان الجبرتي قد
 أسف لذلك الحادث الذى كانت نتيجته تحطيم عدد من تلك الآلات الثمينة ،
 فلا شك أن العطار لم يكن أقل منه أسفاً ، لأنه كان أدري بقيمة هذه الآلات ،
 وما تقدمه للعلم من منافع .

٤ - الاهتمام بالدراسات الأدبية

استطاع العطار أن يكتسب صفة الأديب بالإضافة إلى صفة العالم الفقيه .
 والحق أنه كان على تمكنه فى علوم الشريعة وأصول الفقه والتوحيد ذا ميول أدبية

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٠ .

(٣) المجلة عدد ٩٩ .

واضحة . فلم يكن فيه تزمت الشيوخ وتنطع الفقهاء ، وجمود علماء الشرع ، بل كان شيخاً رحب الأفق ، لطيف الحس ، رقيق الذوق ، وكان له مجال واسع في كتب الأدب والأسفار والمحاضرات والأشعار . ولم يكن يرى أن الأدب من علوم البطالة ، وموضوعات الفراغ . ولكنه رأى الأدب ضرورة لترقيق النفس ، وإرهاف الحس ، وسلامة الذوق ، وصحة الحكم . وهو بهذا أسبق الشيوخ الذين وجهوا الاهتمام بالأدب في الأزهر وجهة جديدة . ولم يكن العصر حينذاك يسمح للطار أن يجرؤ على تعديل برامج التعليم في الأزهر وإدخال بعض المواد الحديثة ، فقد كان الخروج على المألوف حينذاك جريمة لا تغتفر . ولكن الطار استطاع برفق أن يدخل فن الكتابة في دروسه بالأزهر : وفن الكتابة - كما يقول هو - يجرى من العلوم الأدبية مجرى الثمرة من الدوح ^(١) . وفتح بيته لرفاعة الطهطاوى ليتلقى عنه دروساً في الأدب والتاريخ ^(٢) والجغرافية .

وإذا كان الطار لم يعط في الأزهر دروساً في الأدب والشعر ، مخافة أن يصدم شعور قوم كانوا ينفرون من أمثال هذه الفنون التي كانوا يعدونها بدعة ، فإنه استطاع برفق ولباقة كذلك أن يوعز إلى تلميذه الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، المدرس الشاب الحديث عهد بالتدريس في الأزهر ، بأن يعطى دروساً في الشرح والتعليق على كتب الشعر والأدب . ولعل الطار بهذا الإيحاء والإيعاز إلى تلميذه الطموح كان يحس نبض الشيوخ ، ويحس نبض المحافظين على وجه العموم . وبفضل هذا التوجيه الأدبي من الشيخ حسن الطار إلى تلميذه محمد عياد الطنطاوى استطاع الإصلاح في الأزهر أن يسجل أول حركة في الدراسات الأدبية والشعرية في صحن الجامع الأزهر .

والواقع أن الأزهرين فوجئوا حين رأوا شيخاً شاباً - هو عياد الطنطاوى - يترك التدريس في كتب الحديث والفقه ، ويختار للتدريس ميداناً آخر لم يألفه الشيوخ ، وهو تدريس مقامات الحريري ، وشرحها ، والتعليق عليها ، وقراءة

(١) الإنشاء - لحسن الطار - ص ٢ .

(٢) حلية الزمن : لصالح مجدى بك ص ٢٥ .

شرح الزوزنى للمعلقات (١) .

على أن هذه القراءات الأدبية الشعرية قد سبقتها دروس في فن الإنشاء والكتابة كان يلقبها الشيخ حسن العطار نفسه على طلبته بالأزهر . وفي هذه الدروس بعد بهم الشيخ عن مسائل الفقه ومناقشاته واعتراضاته إلى حكايات وطرائف ومحاضرات ، ونوادير أدبية ، وشواهد شعرية ، ولطائف فقرات ، وما يتبع ذلك من كنايات وأمثال . وقد كان كثير من الطلاب يقرون من دروس الفقه الجامدة ، ودراسات الأصول الجافة إلى حلقات العطار التي كانت أشبه بالندوة الأدبية المتشعبة الأطراف .

ولقد فتح العطار عيون الأزهريين على ذخائر من التراث الأدبي عند العرب . ففي خلال بعض حواشيه ، حتى في المنطق والنحو ، كان يهدى طلابه إلى مثل كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني وإلى ما فيه من روائع الشعر الذي يعد ميراث العرب الباقي . وتراه في حاشيته على شرح الخبيصي يشيد بالشعر ثم يتطرق إلى التوصية بقراءة « الأغاني » قائلاً في نص عبارته : (وشجعان العرب في الحروب تتمثل بالأشعار ، وتلقى نفسها عند ذلك في مهالك الأخطار ، فلا تنبأ بمواقع السيوف ، ولا بوارق الختوف ، وفي جميع ما ذكرناه حكايات ونوادير شحنت بها الكتب والدفاتر ، ومن أراد الاطلاع على غرائب هذا الباب فليطالع كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني : وهو كتاب جليل كبير . يحتوي على عشرين مجلدة . . .) (٢) .

أرأيت كيف انقطع عهد الناس بالأدب والشعر خلال ثلاثة قرون من الحكم التركي ، وضاعت معرفتهم — حتى الشيوخ والعلماء منهم — بكتاب مثل كتاب الأغاني . ثم يجيء الشيخ حسن العطار فينادى بأعلى صوته على هذا الكتاب وعلى أضرابه من كتب الأدب والشعر التي ترهف الإحساس ، وتلطف الشعور ؟ .

وحين كان الجبرتي المؤرخ وصديق العطار يرى الاشتغال بمسائل الفقه

(١) حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي — ص ٣١ .

(٢) حاشية العطار على شرح الخبيصي ص ٢٥٨ .

وعلمو الشرع أبني ثواباً ، وأحسن مآباً ، كان العطار يرد عليه : ولماذا ؟ ما دام الدين مصوناً متبوعاً ؟

الحق أن العطار كان موجهاً إلى الدراسات الأدبية بإيحاءاته إلى تلميذه محمد عياد الطنطاوي المدرس بالأزهر أولاً ، وبدروسه في الإنشاء والكتابة الأدبية ثانياً ، وبالروح العامة التي خلعتها على مجالس الأدب في أوائل القرن الماضي ثالثاً ، وهي روح أضفت عليه من صفات الشعر والأدب فوق ما أضفته عليه من صفات العلم والفقه . حتى ليعد أحد ثلاثة كانوا أشهر شعراء وقتهم في أول القرن التاسع عشر ، وهم : السيد إسماعيل الحشاش ، وحسن العطار ، والسيد علي الدرويش . ومن عجب أن هذا العالم الأزهرى الأصولي الفقيه لا يعد في علماء ذلك العصر قدر ما يعد في شعرائه وأدبائه .

إن مشيخة الأزهر لم تصنع من حسن العطار شيئاً غير العمل الرسمي الرتيب ، أما الشعر والأدب فقد صنعا من العطار كل شيء . . . كما صنع تلميذه الطنطاوي من الأدب حلقات جديدة في الأزهر لم يكن له بها عهد من قبل . . . ويكفي العطار فضلاً أنه هو الذي وجه تلميذه رفاة الطهطاوي إلى دراسة الأدب ، ففتح ذلك ذهنه إلى البحث والتفكير ، وأعد له لرسالة القيام بالنهضة الحديثة التي تولاها رفاة على أحسن الوجوه . . .

٥ - المنبه لحركة الإصلاح

لعل صوت حسن العطار هو أول الأصوات العربية التي انطلقت من داخل الأزهر منادية بتغيير كتبه وإصلاح برامجها وإدخال العلوم العصرية فيه . وقد سبقه إلى ذلك صوت مسلم غير عربي هو المرحوم أحمد « باشا » كور الوالي العثماني بمصر ، الذي شعر بنقص التعليم في الأزهر ، واهتمام أهله بتحصيل الفقه والمعقول وعلوم الوسائل كالنحو والصرف والمنطق ، ونبذهم لعلوم المقاصد - كالعلوم الرياضية - مع ضرورتها لتقدم الأمم وقوتها . ولا يلام أحمد « باشا »

كور على أنه اكتفى بإرسال هذه الملاحظة على علوم الأزهر ، ثم اكتفى آخر الأمر بالتقائه بالعالم الرياضي الفلكي الشيخ حسن الجبرتي يتذاكر معه علوم الرياضة والفلك ويتعلم معه عملياً صنع المزاول . . . فما كان ينتظر من مثل هذا الوالي التركي أن يفعل للأزهر أكثر من هذا ، وخصوصاً أن اهتماماته بالعلوم الرياضية كانت اهتمامات شخصية لم ترتفع إلى مستوى المصلحة العامة للمسلمين . ولا يلام كذلك الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر في عهد ولاية أحمد « باشا » كور على مصر لإهماله أمر إصلاح الأزهر ونكوصه من إدخال بعض العلوم العصرية فيه ، فإن الجو لم يكن مهياً في ذلك الحين لإخراج فكرة الإصلاح إلى حيز التنفيذ .

وقد حدثت حادثة أحمد « باشا » مع شيخ الأزهر الشبراوي قبل مولد الشيخ حسن العطار بعشرين عاماً أو تزيد قليلاً . ولا شك أنها كانت تتردد سيرتها بين جنبات الأزهر لما فيها من طرافة وغرابة . ولا شك أن العطار سمع بها وهو طالب بالأزهر أو وهو مدرس فيه . ولا شك أنها أثرت في نفسه ، كما أثر فيها اتصاله بالفرنسيين واطلاعه على كتبهم ، وآلات معاملهم : وأجهزة أرسادهم . ومن هنا قامت في نفسه المتحركة المتطلعة عوامل التنبه نحو إصلاح الأزهر ، بل إصلاح البلاد جملة . وما أصدق على مبارك وهو يتحدث عن حسن العطار قائلاً : (واتصل بناس من الفرنسية ، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم : ويفيدهم اللغة العربية ، ويقول : إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها . . . ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة — يعنى الفرنسية — من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة) . (١)

وما تحمّل عبارة رائد من الإيمان والقوة والتطلع مثل ما تحمله عبارة حسن العطار التي يقول فيها « إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من

المعارف ما ليس فيها». ولقد كان الرجل أشجع الشيوخ بل أشجع المصريين جميعاً حين نادى بهذه العبارة التي انتبه لها الوالي محمد علي حين ألفت إليه الأقدار حكم البلاد . ولا شك أن محمد علي كان يسير على ضوء هذه العبارة فيما أحدثه بمصر من نهضة تعليمية ، وفيما استحدثه من نظام البعثات التعليمية التي أوفدها إلى الخارج - وخاصة فرنسا - حتى يساعد أعضائها - حين إتمام دراستهم هناك - على (تغيير أحوال البلاد ، وتجديد المعارف التي ليست فيها) وفقاً لتوجيهات حسن العطار ورغباته في إصلاح البلاد .

وإذا كان حسن العطار لم يوفق في إصلاح الأزهر وبرامجه وخطط الداسة فيه كما كان يريد ، فإنه قد رزق حظاً كبيراً من التوفيق في الدعوة إلى إصلاح التعليم بالبلاد كلها ؛ فالمدارس العالية الفنية التي أنشئت بمصر في ذلك العهد - كالمهندسة والطب والصيدلة والألسن - هي الاستجابة الحقيقية لدعوة حسن العطار وتطلعاته ومبادئه بجمعية تغيير الأحوال في البلاد . والكتب التي ترجمت بالمئات في عصر محمد علي هي الصدى المحقق لأمنية حسن العطار حين رأى كتب الفرنسيين في الرياضيات والعلوم والآداب . وإذا كان رفاعة الطهطاوى صاحب فضل كبير ويد طولى في حركة ترجمة الكتب في عصر محمد علي ، فإنه بلا شك قد تأثر في هذا بآراء شيخه العطار ، وسمع منه قوله : (ومن سمع به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات ، وعجائب المصنفات ، انكشفت له حقائق كثير من دقائق العلوم ، وتزهت فكرته إن كانت سليمة في رياض الفهوم) (١) .

والعلوم التي يقصدها العطار ليست علوم الشريعة وعلوم الأزهر التي فقد الرجل ثقته بها ، وإنما هي علوم الفرنسيين التي شاهدها هو والخبزقي وغيرهما من العلماء في وقت الحملة الفرنسية . ثم وافته الفرصة بأن يؤكد محمد علي ضرورة إرسال البعثات العلمية في طلبها ، ولم يكتف بهذا بل أوصى الوالي محمد علي بأن

يعين لإمامة أعضاء البعثات في باريس تلميذه وصفيه رفاة الطهطاوى ، الذى عين ناظراً لمدرسة التاريخ والجغرافية التى أنشئت سنة ١٢٥٠ هـ ، فناظراً لمدرسة الألسن التى أنشئت بعد ذلك بعام واحد (١) .

ولابد هنا من الإشارة إلى أن مطامح حسن العطا نحو التقدم العلمى والإصلاح بمصر لم تكن تنبؤات كما يذكر أحد المؤرخين المعاصرين (٢) . وإنما كانت توجيهات وتنبهات . وفرق كبير بين التنبؤ والتنبيه ، فإن التنبيه يدل على الإيجابية من صاحبه . ولم يقصر العطار عن أن يكون إيجابياً في دعوته . فحين عجز عن تدريس كتب العلم الحديث في الأزهر كان يختص نقرأ من تلاميذه الأذنين ليقراً لهم كتب التاريخ والجغرافية والأدب وهى محظورة في الأزهر . ويؤكد لنا هذه الحقيقة مرة أخرى ما نصادفه في كلام على مبارك عن رفاة الطهطاوى حيث يقول : (وكان له - رحمه الله - منزلة خاصة عند الشيخ حسن العطا ، فكان يشترك معه في الاطلاع على الكتب الغربية التى لم تتداولها أيدي علماء الأزهر) (٣) .

والذين ينسبون كثيراً من الفضل إلى محمد على بما استحدثه من نظام البعثات العلمية إلى أوروبا على غير مثال سبق في الحكومات الشرقية ، ويزعمون له العبقرية في هذا الصنيع : ينسون فضل الشيخ حسن العطار في توجيهه محمد على إلى هذا السبيل . فقد كان مقرباً منه ، وكان الوالى يثق فيه : ويطمئن إليه ، ولا شك أنه سمع منه كثيراً ترديده لنعمة تجديد المعارف وتغيير أحوال البلاد ، وقوة المعرفة الفرنسية وغزارتها ، فالتقط محمد على بذكائه هذه الفكرة وحورها بأن جعل الطلاب المصريين ينتقلون بجملتهم إلى ديار العلم بأوروبا - وخاصة فرنسا - ليرتشفوا العلم من مناهله .

وإذا كانت الوثائق الرسمية تغفل دائماً فضل أصحاب الفضل من غير الحكام،

(١) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد على ص ٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢١ .

(٣) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤ .

وتحججهم حتى تفسح المجال لظهور الولاية والحاكمين ، فإن دلائل الأحوال ، وشواهد الأقوال تدل على أن فضل الشيخ حسن العطار في هذا السبيل لا يحججه نكران ، ولا يطمسه نسيان . . .

٦ - منهج في التأليف

يمتاز الشيخ حسن العطار بمنهج في التأليف يبدو واضحاً في كتبه الكثيرة التي كان أكثرها حواشي وشروحاً وتعليقات على كتب أزهرية مشهورة متداولة بين أيدي الطلاب . فما تميز به الشيخ هذه الدقة في التعريفات ، بل الدقة في كل عبارة يقوفاً . ولعل هذه الدقة جاءت من عقلية المنطقية المنظمة التي ظهرت في اهتماماته بشروحه على كتب المنطق وحواشيه عليها ، وخاصة حاشيته على شرح التهذيب ، والتهذيب هو المختصر الذي ألفه العلامة سعد الدين التفتازاني في المنطق . ففي حواشيه وتعليقاته الثمينة نراه واقفاً للمؤلفين الأصليين بالمرصاد ، يصحح أوهام عباراتهم ، ويحدد معاني ألفاظهم تحديداً دقيقاً . فإذا قال النحوي الشيخ خالد الأزهرى مثلاً أن (الألف) من الحلق ، عقب عليه العطار قائلاً إن هذا القول فيه تسميح ، لأن الألف من الجوف . . . وإذا قال الشيخ خالد إن اسم الفعل من أجزاء الكلام التي يتركب منها ، وهي الاسم ، والفعل ، والحرف ، استدرك عليه العطار موضحاً بأن اسم الفعل قد يكون ماضياً ، مثل هيات بمعنى : بعد ، ومضارعاً ، مثل : أف بمعنى : أتوجع ، واسم فعل أمر ، مثل : صه : بمعنى : اسكت (١) .

ويميل العطار فوق دقة التعريف إلى النظرة الموسوعية في مصنفاته ، أو إلى الشمول والإحاطة في المسائل ، بدلاً من الاختصار والاختصار . فإذا قال نحوي بأن التنوين أربعة أقسام : تنوين التمكين ، وتنوين التنكير ، وتنوين المقابلة ، وتنوين العوض — عقب عليه العطار قائلاً بأن (أقسام التنوين عشرة : ونحن

نتم لك البقية إجمالاً . . .) ثم يأخذ في حصر بقية أقسام التنوين (١) .

وإذا ذكر أحد النحاة اسم (أحمد) على أنه علم ممنوع من الصرف لم يكتب الشيخ حسن العطار بهذا بل يزيد في التعريف فيقول إن اسم أحمد لم يتسم به أحد قبل النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وأما « محمد » فقد تسمى به قبله جماعة قيل إن عددهم أربعة عشر ، أو خمسة عشر (٢) . فهو هنا لا يحصر نفسه في دائرة النحو والعلل النحوية ، بل ينطلق إلى معارف من التاريخ والأدب وغيرها . ولا يقف العطار في مصنفاته وحواشيه وشروحه عند حد التقرير والتفسير ، ولكنه يتجاوز ذلك إلى التعقيب على المؤلفين وتصويبه لهم . ففي المنطق إذا أهمل مؤلف مثلاً لفظة « فقط » استدرك العطار عليه منادياً بضرورة إضافة هذه الكلمة حتى يكون مفهوم الجملة كلها أدق (٣) . . . وتراه يناقش العلماء في نصوص عباراتهم بما يجعلها أقرب إلى الدقة التامة . كمناقشته لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري المتوفى سنة ٩٢٥ هـ في شرحه لإيساغوجي في المنطق (٤) . وهو في حواشيه لا يسكت على الأخطاء النحوية واللغوية التي قد يقع فيها المصنفون سهواً أو لبعض الاعتبارات . فإذا قال شارح التهذيب في المنطق بأن (القضايا الموجهة التي يبحث عنها وعن أحكامها من العكس والتناقض خمسة عشر . . .) وقف له حسن العطار بالمرصاد يعلق على صيغة العدد هنا قائلاً : (لا ينبغي أن المعدود هنا مؤنث ، وهو « قضية » ، فكان يجب تجريد « خمسة » من التاء ، لأنها تجري على خلاف القياس ، ويجب إلحاق التاء لعشر لأنها عند التركيب تجري على القياس . . .) (٥) ثم يعود العطار فيلتمس تحليلاً لهذا الخطأ في صيغة العدد قائلاً : (وقد يوجه إلحاق التاء بخمسة هنا ، بأن المعدود محذوف) .

(١) المصدر نفسه ص ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٧ .

(٣) حاشية المطار على شرح التهذيب في المنطق - ص ٨٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ١١٢ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٦٤ .

وهو التماس يجد له العطار مستنداً من أقوال النحاة . . .

وبلغت النظر في مؤلفات العطار ميله إلى الإطالة في كثير من تعليقاته . وهو لا يرمى من هذه الإطالة إلا إلى توضيح المعنى في ذهن قارئه . وقد يدرك هو نفسه أنه إطال ، وأنه ربما أسأم القارئ وأضجره ، فتراه يقدم من الأعدار والاعتذار ما يدل على رقة شعوره . كما فعل في تعليقه على إحدى المقولات في المنطق ، ولم الشوارد الكثيرة حولها . فاعتذر من ذلك قائلاً : (وقد نظمنا في هذه المقولة الشوارد الكثيرة الفوائد . فلاتسأم من الإطالة ، ولا تتشك الملالة :) (١)

أما « الاستطراد » فهو ظاهرة تلفت النظر في مصنفات العطار ، والواقع أن الرجل كان موسوعى الذهن ، متعدد جوانب الثقافة . فتراه يستطرد في خلال الكلام من موضوع إلى موضوع ، ولكنه استطراد لا يميل قارئه ، بل قد يكون فيه فائدة ومتاع عظيمان . ولا نسوق هنا غير نموذج واحد من عشرات النماذج التي صادفتنا في كتبه . فلما فرغ من التعقيب على باب « التصورات » في المنطق ، وانتقل إلى باب « التصديقات » ختم البحث بسرد طائفة من الأخبار والحوادث التي وقعت بمصر . ولم يكن إتيانه بهذه الحوادث حشواً أو لغواً ، ولكنه رأى أن يمهد لنفسه العذر حين أسكته الحوادث عن متابعة حواشيه وتقاريره على كتاب المنطق . فإنه بعد أن سرد أنباء المطر الشديد ، والحريق الهائل بالقلعة ، والطاعون بمصر ، ختم الكلام بقوله : (واجتماع هذه الأسباب هو الذى أوجب لى الوقوف عند هذا القدر ، فإن انجلى هذا الحادث ، وكان فى العمر بقية ، شرعنا فى القسم الثانى مستمدين الإعانة من الله ، وإن كنا من الذاهبين مع هذا الوفد : فعسى أن يأتى بعدنا من يوفقه الله للإتمام . . .) (٢) .

وقد تنبه لمثل هذا الاستطراد المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى وهو يكشف عن استطراد العطار فى بعض المواضع من حاشيته على (شرح جمع

(١) المصدر نفسه ص ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٨ .

الجوامع) إلى لوم أهل الأزهر على إعراضهم عن كتب المتقدمين^(١) . . . وإلى مدح كتب الفرنسيين والأجانب المترجمة إلى اللغة العربية^(٢) .

ويمتاز حسن العطار في تأليفه بالتحقيق ومقابلة النسخ الخطية من الكتاب الواحد ؛ وهو منهج سليم في التأليف ، فقد رجع بعض العلماء المناطقة إلى نسخ من كتاب عبد الحكيم السيالكوتى^(٣) في المنطق ، وهو حاشيته على شرح القطب الرازى على الشمسية ، ونقلوا بعض عباراتها محرفة مما ترتب عليه خطأ في فهمهم . ولكن العطار فطن إلى هذا الاضطراب في النسخ ، ويحمد الله على أن وفقه إلى الحصول على نسخة خطية صحيحة جداً ، وندعه هنا يقول بنص عبارته : (. . وأصل نسخ عبد الحكيم كلها محرفة ، فنقلها - يعنى بعض العلماء - بما فيها من التحريف والتصحيف . وقد منّ الله على الفقير بنسخة من عبد الحكيم صحيحة جداً ، قدم بها رجل فاضل من بخارى ، فصححنا عليها نسخة مصرية ، وعليها اعتمدت في النقل . . .)^(٤)

ومن مقابلات العطار الذكوية لنسخ المخطوطات ما لاحظته على بعض نسخ « التهذيب » للعلامة التفتازانى من وجود نقص في بعضها ، وزيادة في بعضها الآخر . فحين جاء « الخبيصى » لشرح التهذيب لم يتناول الموضوع الناقص لأنه بالطبع - ليس في نسخته - فلاحظ الشيخ حسن العطار هذا ، واستنتج أن النسخة التي وقعت للشارح ليست من النسخ التي ألحق بها المؤلف الأصلي بعض الزيادات والإضافات ، كما رجح الاحتمال بأن تكون هذه الزيادات ليست من عمل المؤلف الأصلي : التفتازانى ، ولكنها (من إلحاق البعض)^(٥) .

(١) تاريخ الإصلاح في الأزهر - نعيد المتعال الصعیدی ص ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠ .

(٣) هو عبد الحكيم بن شمس الدين الهندى البنجابى من علماء المسلمين في القرن الحادى عشر

الهجرى . اشتغل بالمنطق ، والبلاغة والعقائد ، وله حاشية على تفسير البيضاوى . توفى سنة ١٠٦٧ هـ .

(٤) حاشية العطار على شرح الخبيصى - ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٤٥ .

وفى سبيل التحقيق وتوثيق المخطوطات والمقابلة بين النسخ ومعارضة بعضها ببعض كان العطار لا يضمن بمال ولا جهد . فمن أجل حاشيته فى المنطق اضطرت إلى الاطلاع على مخطوطات ثمينة تتصل بالموضوع ، فحصل - مثلاً - على نسخة خطية من كتاب (١) « شرح سلم العلوم » ، والسلم كتاب فى المنطق لحب الله البهارى المتوفى سنة ١١١٩ هـ . ومن شرح سلمه العلامة الهندى اللكنوى عبد العلى محمد بن نظام الدين المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ .

٧ - الإجازات العلمية وتقاريف الكتب

عقدنا فى كتابنا عن « المقرئ صاحب نفح الطيب » فصلاً - نظنه مفيداً - عن الإجازات العلمية وطريقة منحها من العلماء ، يرجع إليه من شاء من القراء . وقد ظلت الإجازات من الشيوخ إلى تلاميذهم جارية إلى عصر الشيخ حسن العطار ، بل بعد عصره بعشرات من السنين . ولا نزال نذكر الإجازة التى كتبها الشيخ محمد الأشمونى لتلميذه الشيخ حنفى ناصف سنة ١٣١٦ هـ - سنة ١٨٩٨ م (٢) . ولما كانت الإجازات تحتاج - من وجهة نظر الكتابة الفنية - إلى مراسم وقواعد وأصول لكتابتها والتفنن فيها ، فقد رأى حسن العطار أن يصنع نموذجاً منها فى كتابه « الإنشاء » (٣) حتى ينسج العلماء والأساتذة على منواله حين يمنحون الإجازات لتلاميذهم !

على أن العطار فى كتابه « الإنشاء » قد سجل بعض إجازاته الواقعية - لا النموذجية - التى كتبها لبعض طلبته . كإجازته إلى سيدى العربى الدمناتى كاتب سلطان المغرب ، الذى كتب إلى شيخه العطار يستدعيه ، أو يطلب منه

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٢ .

(٢) ترى صورة من هذه الإجازة فى كتاب « الشيخ الحسين بن أحمد المرصنى » - للمرحوم

الأستاذ محمد عبد الجواد - صفحة ٣٦ .

(٣) إنشاء عطار ص ٥٣ .

أن يمنحه إجازة ، ففعل ! ونسجل هنا - من باب التاريخ - كتاب الاستدعاء الذى بعثه الدمناقى المغربى إلى الشيخ حسن العطار ، وفيه يقول : (يا رب الذكاء الرائع ، وحامل العلوم التى سد بها الذرائع ، والمطيل بلسانه فى حفظ علوم الشرائع ، المستولى على المعرفة والفقه والفرائض ، ومذلل جناح الأصول إذا لم يذلها رائض ، وأستاذ العربية والحساب ، وخائض بحر المنطق الذى اكتسب به الإدراك أى اكتساب ، ملاك الأوطار ، أبا على السيد حسن بن محمد العطار ، نداء مستجيز ، بالاستدعاء الوجيز . ذا فضلكم وما خولكم الله من إحسان ، لا ينى به قلم ولا لسان . . .) (١) . وقد استجاب العطار لاستدعاء الرجل بالإجازة . ولم يكتب بأن تكون إجازة نثرية ، بل توجهها بقصيدة من الشعر يقول فيها :

طلبت إجازة منى ... وإنى لحافى الرجل فى هذه المفازه
وما لى إن منعتها اقتدار ! وما لى إن منحتها إجازة !
وكيف أجوز فى ميدان قوم حقيقة فضلهم أرجو مجازه؟

وقد حفظ لنا مؤرخ القرن الثالث عشر الهجرى الشيخ عبد الرزاق البيطار صورة الإجازة التى كتبها الشيخ حسن العطار لوالده الشيخ حسن البيطار حينما كان المترجم له نازلاً بدمشق بعد رحلة إلى بلاد تركية وألبانيا ، وتعد هذه الإجازة وثيقة تاريخية هامة : ومصدراً من مصادر الترجمة للعطار ، لاشتمالها على أسماء شيوخ العطار أولاً ، ولاحتوائها على أسماء مؤلفاته التى كانت له حتى سنة ١٨١٥ م : وهو العام الذى عاد فيه إلى مصر بعد رحلاته الطويلة ، وغيبته المتصلة .

وتدلنا استجابة العطار السريعة لكل من طلب منه إجازة علمية على روح هذا الرجل فى تشجيع الطلاب على طلب العلم وإقبالهم عليه . فإنه بهذا الصنيع

يجب التلاميذ في الاستزادة من العلم ، ولا يصددهم عن قصد موارده .
 وهذا التشجيع بالإجازات يناصره تشجيع آخر من العطار بتقريظه للكتب .
 وإذا كان تقريظ الكتب - بل تقريظ القصائد - « تقليعة » العصر في العصر
 التركي كله ، بل كان بدعة من بدعه العجيبة ، فإن الشيخ حسن العطار لم يغال
 فيه إلى الحد المرذول المستقل . وقد حفظ لنا في كتابه في « الإنشاء » نصوص
 ثلاثة تقاريز ، أولها على كتاب ألفه شيخ الإسلام التركي عطاء الله أفندي يرد به
 عقائد قوم مبطلين ، وثانيها تقريظه على ترجمة ألفية ابن مالك بالتركية التي قام
 بها خيرت أفندي رئيس الكتاب في دار السلطنة العثمانية في عصره ، وثالثها
 تقريظه (على مؤلف لبعض الموالى الكرام ، ألفه في غلطات الأنام ، وهو حفيد
 أفندي . . .) (١)

وليس لهذه التقريظات قيمة أدبية ، فقد انتهى عهدا ، وبطلت بدعتها .
 ولم تكن في الحق أكثر من مجاملة بين الأدباء والعلماء ، ولم يقصد بها أن تكون
 ذات قيمة نقدية للعلم والأدب . والحق أيضاً أن العطار لم يسرف فيها ولا في
 استعمالها ، وإن كان تلميذه الشاعر محمد شهاب الدين قد غالى في استعمالها
 شعراً مغالاة عظيمة ، حتى لقد جعل قسماً كبيراً من ديوانه (٢) لهذه التقاريز
 التي يعد بها أكبر المقرظين . ومن تقريظات الشاعر شهاب الدين تقريظه لكتاب
 « القاموس المحيط » حين تم طبعه بالقاهرة سنة ١٢٧٢ هـ .

ويذكرنا تقريظ الشهاب لطبع القاموس بتقريظ الشيخ محمد سعيد السويدي
 البغدادى لشرح القاموس المحيط للعلامة مرتضى الزبيدي سنة ١٢٩٤ هـ .
 ولن نطيل الحديث عن هذه التقاريز النثرية والشعرية التي لن يعدم القارئ
 الاطلاع عليها في مواضع متفرقة من تاريخ الخبرتي ، أو في دواوين شعراء ذلك
 العصر ، أو في كتاب « الآثار الفكرية » الذي أفرد فيه جامعه : أمين فكرى
 « باشا » باباً - اصلاً للتقاريز النثرية التي كتبها والده الأديب الشاعر الناثر عبد الله

(١) المصدر نفسه صفحات ٥٨ ، ٦١ ، ٦٦ .

(٢) انظر ديوان شهاب الدين .

« باشا » فكري . ولكن الذى نستطيع أن نقوله بحق إن الشيخ حسن العطار لم يسرف في هذه التقاريط ، بل التزم فيها حد الاعتدال والقصد ، ولعله رأها كما كانت في عهده وسيلة للمجاملة وتعارض الثناء بين العلماء والأدباء ، فلم يلجأ إليها إلا بمقدار . . .

٨ - آثار العطار ومؤلفاته

لا نجد أوثق من الشخص المترجم نفسه ، حين يعدد لنا بنفسه وبقلمه آثاره ومصنفاته . فإنه هو المصدر الذى لا يتطرق إليه شك . ولكن عيب هذه الطريقة أن المترجم له قد يكون سجل مؤلفاته قبل نهاية أجله بزمن طويل أو قصير . وهنا يكون سجل مؤلفاته ناقصاً بقدر ما كتبه بعد ذلك من كتب ومصنفات ، كما نجد ذلك عند العلامة المؤرخ السيوطى حين سجل في كتابه : « حسن المحاضرة » ثبنا بأسماء كتبه التى ألفها ، وهو يترجم لنفسه ترجمة ذاتية - أو شخصية (١) - فقد كتب الترجمة وسجل مصنفاته قبل وفاته بفترة صنف فيها كتباً جديدة خلا منها ذلك الثبت المهم .

والذى حدث عند السيوطى في القرن العاشر الهجرى ، حدث عند حسن العطار في القرن الثانى عشر . فإنه في إجازته التى كتبها للشيخ حسن البيطار ختمها بذكر مصنفاته التى كانت إلى ذلك التاريخ الذى كتب الإجازة فيه وهو سنة ١٨١٥ م . فسقطت بالطبع الكتب التى ألفها بعد ذلك . ويذكر لنا العطار أسماء مؤلفاته على هذا النحو :

- ١ - حاشية شرح قواعد الإعراب .
- ٢ - حاشية الأزهرية ، في النحو
- ٣ - حاشية العصام على الوضعية للإيجي

(١) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - للسيوطى - ج ١ ص ١٨٨ .

٤ - حاشية شرح إيساغوجي لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري في المنطق

٥ - حاشية النخبة

٦ - حاشية السمرقندية لأبي القاسم السمرقندي في الاستعارة

٧ - حاشية السلم لمحب الله البهاري من علماء القرن الثاني عشر الهجري

٨ - حاشيتان على ولدية المرعشي في آداب البحث

٩ - شرح المنظومة الوضعية

١٠ - شرح المنظومة التي في آداب البحث

١١ - شرح منظومة التشريح

١٢ - شرح نزهة الشيخ داود في الطب

١٣ - حاشية شرح أشكال التأسيس في علم الهندسة

١٤ - حاشية المغني في النحو . وكان وهو بدمشق يدعو الله أن يتمها

ويتم حسن العطار هذا الثبت بقوله : (ولنا رسائل عديدة في مسائل متفرقة من علم الحكمة والكلام وغير ذلك)^(١).

أما الكتب التي ذكرها على مبارك في خلال ترجمته للعطار ، فلم يذكرها على سبيل الحصر ، بل قال إن له تأليف عديدة منها (١) حاشيته على جمع الجوامع في نحو مجلدين (٢) وحاشية على الأزهرية في النحو (٣) وحاشية على مقولات الشيخ السجاعي (٤) وحاشية على السمرقندية في البلاغة . ورسالة في كيفية العمل بالأسطرلاب والربعين المقنطر والحبيب والبسائط ، ورسائل في الرمل والزايحة والطب والتشريح وغير ذلك .

وذكر له المرحوم أحمد تيمور في « فهرس الخزانة التيمورية » تسعة من الكتب لا تزيد . وليس فيها من زائد على ما عند البيطار وعلى مبارك إلا هذه الكتب : (١) رسالة في البسملة والحمدلة (٢) لإنشاء الشيخ العطار (٣) حاشية العطار على كتاب التذهيب للخبيصي في علم المنطق (٤) حاشية العطار على

جمع الجوامع في أصول الفقه لتاج الدين السبكي (٥) منظومة العطار في النحو .
 وواضح أن هذه الكتب الخمسة هي مما ألفه الشيخ حسن العطار بعد عودته من
 رحلته إلى مصر سنة ١٨١٥ .

وذكر له جرجي زيدان ستة من الكتب هي: (١) إنشاء العطار (٢) منظومة
 في النحو (٣) ديوان ابن سهل الأندلسي (٤) حاشية على شرح الأزهرية
 (٥) حاشية على السمرقندية في البلاغة (٦) مظهر التقديس بذهاب دولة
 الفرنسيس ، وهو للجبرتي بالأصالة ، وفيه بعض الشعر والنثر للعطار بالمشاركة .
 وليس في الكتب التي ذكرها جرجي زيدان زيادة على ما سبق ذكره عند
 البيطار وعلى مبارك وتيمور إلا ديوان ابن سهل ومظهر التقديس .

ولم يرد في ثبت مؤلفات العطار عند هؤلاء المحققين ذكر لديوان العطار
 الذي يقول عنه الجبرتي إنه موجود ، وإن قصيدة : أنهض فقد ولت جيوش
 الظلام ، مسطورة به . وقد فصلنا الكلام عن ديوان العطار قبل هذا في الفصل
 الخاص بالعطار الشاعر ، فلن نعيد القول بالتكرار فيه .

ولا بأس أن نقول هنا كلمة عن كتاب « مظهر التقديس » الذي سجله
 جرجي زيدان في مؤلفات العطار ، ثم صحح الموقف على التو ، فقال (إنه
 للجبرتي على ما يظهر وفيه جانب من منظوم العطار ومنشوره) ^(١) . فالأستاذ
 خليل شيبوب يصحح الوضع على طريقته بقوله : (ولا شك أن هذين البيتين
 من نظم الشيخ حسن العطار الذي ضمن هذا الكتاب فصولاً من إنشائه
 المسجوع ، وخاصة تعليقه على قصيدة الصيرفي التي مدح بها أحمد « باشا »
 الجزائر ، وهي ثمانون بيتاً أوتزيد ، أدرجها بحروفها ونقدها لغوياً وعروضياً) ^(٢) .
 والأستاذ محمود الشراوي يخلص من مقابلته بين مظهر التقديس وما كتبه
 المؤرخ الجبرتي في تاريخه المسمى « عجائب الآثار » ، عن دخول الفرنسيين
 مصر وإقامتهم فيها ، وخروجهم منها ، بالنتائج السليمة الآتية ، وهي أن الجبرتي

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ - ص ٢٢٢ .

(٢) عبد الرحمن الجبرتي - خليل شيبوب - سلسلة اقرأ ، ص ٨٨ .

في « مظهر التقديس » (يذكر اسم الشيخ حسن العطار على أنه شريك في تأليف الكتاب ، فهو يقول في أوله : إنه ألف كتابه وضم إليه ما كتبه الشيخ حسن العطار من النثر والشعر . ثم يقول عند اختياره اسم الكتاب : « وسميناه » مظهر التقديس . وهو عند ما ذكر ذلك عن تاريخه قال « سميته » عجائب الآثار . وعند ما يورد بعض الشعر يقول : إنه « لصاحبنا الآتي ذكره » أو « لصاحبنا السابق ذكره » بعد أن ذكر اسم الشيخ العطار (١).

والحق أن هذه الملاحظات الذكوية والنتائج الواعية جديدة بالاعتبار ، لأنها تصحح الرأي في كتاب « مظهر التقديس » على أوضح الوجوه .